تعليم الرضُّع

لقد كانت هناك طائفة كبيرة من الأبحاث في العقد الماضي التي تركز على كيفية تعلم الأطفال الرضع. ويعمل العلماء الآن على البرهنة على أن ملايين من الأمهات ومن الآباء على ما يشكون فيه، من أن الأطفال ماكينات هائلة للتعلم. أما عن الأطفال فمهارة التعلم تبدأ في اللحظات التي تتبع الولادة. ولقد كان هناك تقدم غير عادي في فهم العمليات البيولوجية للمخ وكذلك كيفية قيام الأبوين والعالم بتشكيل عقل الطفل الرضيع. وما يميز الجيل الحالي من الباحثين في مجال علم النفس الخاص بالوعي هو الاستخدام المبتكر للتجارب ليتم فهم أن الأطفال الرضع يدركون وكذلك كيفية تعلم الأطفال الرضع. وتعتمد التجارب دوما على التقييمات وملاحظة حركة العين أو تسجيل معدلات القلب ليتم إقرار ما إذا كان الأطفال الرضع يفضلون مشهد أو صوت محدد أو رائحة محددة عن الأخرى. ونحن الآن نعرف انه عند الولادة يفضل الأطفال الرضع الأوجه والأصوات البشرية ومن الممكن أن يميزوا بين الأوجه المألوفة والأوجه الغير مألوفة وكذلك الأصوات المألوفة والغير مألوفة. والكبار يدخلون في حياة الطفل بخلاف الأم بنفس التأثير وكبديل مؤقت للأم، أو كأشخاص يؤدون بعض المهام الغذائية–أو كعامل ردعي بالنسبة للتغذية غير السليمة، كتناول أجسام غريبة أو مص أدوات غير نظيفة وفي حالة الفطام. وتتوقف نوعية رعاية الأم إلى حد ما على المعاونة التي تحصل عليها من الكبار الآخرين في محيط الأسرة–عادة الزوج–وعلى الأسرة التي ولد فيها الطفل، واعتراف المجتمع بالأسرة كمؤسسة أساسية من مؤسساته والضمان الثقافي لاستمرار الأعراف والقيم الاجتماعية الأساسية.

ويعتبر الأطفال الرضع في الحقيقة من أهم ماكينات وأكثر ماكينات التعلم تعقيدا على مستوى العالم، كما أن تعلمهم يتضمن بلايين المدخلات التي يقوم الآباء والمحيطين بهم بإدخالها. واليوم يعمل علماء الوعي على تعليمنا أن الأطفال الرضع

يعتبروا أيضا علماء يقومون بأداء مجموعة من التجارب المعقدة كلما تنضج أمخاخهم. وقام اليسون جوبنيك، الحاصل على الدكتوراه، وزملائه على وصف العديد من تلك التجارب في كتابه "عالم في سرير الطفل". إنهم يصفون الأطفال الرضع وعقولهم على أنها مشابهة لأجهزة الحاسب الخاصة المصنوعة من الأعصاب بدلا من رقاقات السليكون. ولكن تعتبر برمجتها قوية بشكل غير طبيعي إلى درجة أن ابنة بيل جيتس الصغيرة قد قامت بالفعل بحل المسائل التي لا يزال بيل بكل بلايينه غير قادر على حلها بنجاح.

الرسالة واضحة، إذ يتعلم الأطفال الرضع بسرعة مدهشة من خلال التفاعل مع الآباء وبيئتهم. وتحدث التغيرات المثيرة عندما تقوم الأم بالغناء لطفلها أو عندما يقوم الأب بالابتسام لابنه وعندما يقوم بهز رأسه. وهناك دليل صغير أو لا يوجد دليل على أن صرف المئات من الدولارات على البرامج الخاصة المصممة يؤدي إلى تربية الأطفال الرضع بشكل أفضل أو أن ذلك سوف يؤدي إلى أي شيء. ولقد كان ليوناردو دافينشي وتوماس جيفيرسون وولفانج موزارت قادرين على تحقيق نجاحا معتدلا بالرغم من الافتقاد إلى أو عدم وجود برامج التعلم المعتمدة على الفيديو أو على الحاسب الآلي.

تتابع المهارات:

تتطور المهارات بالترتيب بشكل مرتب، بدلا من أن تتطور بطريقة عشوائية. وهناك الكثير من الأبحاث في مجال الأطفال والمجال النفسي التي تركز على عملية التتابع ولقد ساعد ذلك على إقامة الترتيب المتوقع للأحداث وقيود الاستواء. وهناك محاولات للربط بين السن الذي يحدث فيه شيء ما والقدرات المستقبلية ولم تكن تلك ناجحة جدا، بالرغم من ذلك.

كما أن هناك مثال عن البناء المنطقي للمهارات المعقدة بشكل متزايد، ودعنا ننظر إلى تتابع التطور المطلوب للطفل:

استخدام القلم الرصاص:

إن المرحلة الأولى في تلك النتيجة هي السيطرة على المنعكس اللاإرادي. يملك كل الأطفال على ما يذكر باسم المنعكس اللاإرادي للقبض . حيث إنهم سوف يقبضون وسوف يحتفظون بأي عنصر متواجد على كفوفهم، على سبيل المثال إصبع شخص كبير يداعبهم أو قلم رصاص. ومن الممكن أن يوضح الأطباء أن ثورة الطفل الرضيع تتم من خلال السماح له أو السماح لها بتشبيك كل من أصابع سبابة الطبيب ثم رفع الطفل من فوق المنضدة من بعد ذلك. وسوف يوضح الطفل الرضيع قوته أو قوتها بشكل يدعو للإعجاب، ولكن لا يمكن اعتبار ذلك استخدام معقد لليد. لا يوجد سيطرة على ذلك المنعكس اللاإرادي، كما سيقوم الطفل بالقبض على أي شيء يوضع في راحة يده. وحقا، يمكنك أن تلاحظ كيفية احتفاظ طفلك الرضيع بيديه أو يديها مغلقتين على هيئة قبضة أثناء الغالبية العظمي من الشهور القليلة الأولى من الحياة.

ونفسر هذه الرغبة في الإمساك والاحتفاظ (القبض) بأنها رد فعل للتجربة الجسدية الخاصة بالصعوبة في التنفس، أو العض، أو غير ذلك من المتاعب الجسمية المبكرة. غير أن الإمساك والاحتفاظ عن طريق العض كثيراً ما يسبب انسحاب الأم، وتولد لدى الطفل حثاً جديداً للإمساك والاحتفاظ (القبض) بحده وبشكل أشد. أن العض كإحساس بالإحباط هو تعبير ثانوي شبيه بالنشاط العشوائي السابق وصفه في محاولة الوصول إلى ما يشعر الطفل بأنه لم يعط له كما يجب.

وكلما يتطور الجهاز العصبي، يصير الطفل أكثر قدرة على التغلب على منعكس القبض الإرادي، وعادة ما يكون ذلك عند بلوغ عمر ثلاثة أشهر. حيث يعتبر الطفل جاهزا الآن لاستخدام يديه بطريقة مختلفة. وببلوغ حوالي أربعة اشهر، من الممكن أن يحتفظ الأطفال الرضع بأيديهم مفتوحة كما يمكنهم القبض على العناصر المتواجدة فيها. وبالرغم من أن رؤيتهم تعتبر جيدة، إلا أن تناسقهم لا يعتبر معقدا بالشكل الكافي للوصول إلى العنصر ولمناولته. وسوف يقوم الأطفال الرضع في العادة باجتياز العنصر.

وعند بلوغ خمسة شهور من العمر، تصير فترات مناولة الأطفال الرضع أفضل. ويمكن الأخذ في الاعتبار بدء العملية التي تعرف باسم التصنيف، كلما يقوم الطفل بجذب الأشياء اقرب منه باستخدام يده بالكامل. وعند بلوغ سن التسعة أشهر من العمر أو حوالي ذلك يمكن للأطفال الرضع ممارسة السيطرة على الإبهام والسبابة ومن الممكن أن يقوم بتحريكهما معا لالتقاط العناصر الصغيرة مثل الزبيب والبنسات والحبوب . وبمجرد أن يكون طفلك قادرا على التقاط تلك العناصر، وبمجرد تطوير قدرته على اختبارها ووضعها في النهاية في وسيلته العظيمة للاستكشاف، فمه الذي يستكشف به الأمور. يعتبر تطور ذلك الإصبع إلى حركة قبضة السبابة أمرا فريدا للبشر. ولسوء الحظ تجعل تلك القدرة الأطفال في مخاطرة من اختناق الأنف والفم وامتلاء الأذن بالأشياء الجيدة والأشياء الشريرة!

والآن، يعتبر الأطفال قادرين على تذكر الأشياء بشكل إرادي. والقدرة على تحرير العناصر بطريقة بارزة– حيث يعتبر معروفا بدرجة أفضل بقدرة الطفل على رمي الطعام على الأرض بدءا من اليوم الأول من ميلاد الطفل.

ومن بعد مرور عام، تتطور الأشياء بسرعة. حيث أن الأيدي التي تعلمت تحرير الألعاب بإرادتها من شهور قليلة مضت تعتبر الآن لطيفة وقادرة بدرجة كافية على تحريك قالب مكعبات واحد بدقة ووضعه على قمة الآخر. وببلوغ عامين من العمر، من الممكن أن يقوم طفلك المهندس المتبرعم ببناء برج يبلغ طوله ستة قوالب من المكعبات واحد فوق الآخر. وببلوغ سن العامين، يمكن لطفلك المهندس المتبرعم الممكن أن يقوم ببناء برج من ستة قوالب فوق بعضها البعض. ومثل أي مهندس مسرور بعمله أو بعملها، سوف يشعر الطفل بالحاجة إلى أن ربط سجلات لنجاحه أو نجاحها بالقدرة على القيام بالتطويرات. وفي البداية سوف يقوم الطفل بالرسم بأقلام الألوان في القبضة. ولكن قبل بداية العام الثالث، سوف يحتفظ الطفل بقلم التلوين كما يقوم البالغ بذلك. وبالتالي تعتبر الأقلام الرصاص إلى حد ما أكثر كثافة من أقلام التلوين ولكن سوف يكون البناء سيد مهارة القبض على القلم الرصاص كذلك.

تؤدي عمليات الأخذ والوصول إلى الأشياء إلى الشكل الاجتماعي التالي، وهو الإمساك (القبض) أن الإمساك بالشيء (القبض على الشيء) والتحفظ عليه يحدثان أيضاً مع الشكل الفمي الاندماجي (الضمي) لعملية المص الممتد للشيء الأول (حملة الثدي) أو البديل المناسب– ومع الإدراك البصري، وتحديد موضع مصدر الأصوات والخبرات اللمسية. وفي الحالات التي تنمو فيها الحاسة المبدئية للثقة، من خلال الأخذ نمواً غير مرضي، فإن الفرد يميل لاستخدام أنشطة عشوائية في محاولة للحصول على ما يشعر بأنه ينقصه في إشباع رغباته. وينبع شعوره بعدم الرضا. من عدم وجود التكامل المناسب، وشعور بعدم الثقة في النتائج الحية من خبرته الضئيلة في الأخذ.

وفي النهاية، يحتاج الصبي المبتديء إلى مساعدة من قام بتعليمه تلك المهارة. لا يمكن للطفل أن يطور المهارات الفنية من دون أن يكون هناك أوراق أو أن يكون هناك لوحة رسم. ولكن الضروري توفر تلك المواد ووجود فترة للممارسة، وسوف يكون الطفل في حاجة إلى التشجيع. وتعتبر الأطفال مخلوقات اجتماعية، حيث تجعل الابتسامة أو الكلمة الطيبة طفلك يشعر بأنك مسرورا بتقدمه أو بتقدمها.

ويوضح ذلك التتابع المتسلسل أغلب عمليات تطور الطفل، مثل المشي. وتعتبر القواعد العامة كما يلي:

لابد من أن يتغلب الطفل على المنعكسات اللاإرادية للوصول إلى السيطرة الإرادية.

أن يكون هناك تقدم منطقي، الحركات الأغلظ التي تسبق دوما الحركات الأبسط.

لابد من أن يقوم الطفل بالتنسيق بين مجموعة مختلفة من الأحاسيس. على سبيل المثال، أن يتم العمل على بناء برج من قوالب المكعبات، حيث يعتمد الطفل على البصر وعلى عمق الإدراك وعلى الاتزان.

من الممكن أن تتطور المهارة فقط عندما يكون الجهاز العصبي ناضجا بالدرجة الكافية. وبالتالي يعتبر بناء برج من القوالب مستحيلا بالنسبة للطفل البالغ من العمر ستة شهور، أيا كان مدى تعرض الطفل لقوالب المكعبات.